محمد حسنين هيكل

عبد الناصر والعالم

مقدمة
بقلم محمد حسنين هيكل

وراء هذا الكتاب قصة تعود إلى سنة ١٩٥٧

في بداية تلك السنة اللاحقة مباشرة لحرب السويس كان اسم جمال عبد الناصر يدوى فى آفاق الدنيا ، ولم يكن رمز الحركة الوطنية المصرية والقومية العربية فحسب ، ولكنه كان أيضا رمز حركة التحرير الوطنى التى كانت رياحها وعواصفها تتجمع لتهب على كل القارات المتطلعة لغد جديد : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

فى ذلك الوقت تلقيت أول عرض عالمى بأن أكتب قصة " عبد الناصر والسويس " : لكنى ترددت لأن الحوادث كانت ساخنة وملتهبة ، كما أننى كنت مستغرقا بالكامل في ملاحقة فترة التحولات السياسية والاجتماعية والدولية التى كانت تهز المنطقة العربية وما حولها هزا لسنوات طويلة مازالت معنا حتى هذه اللحظات .

وخلال هذه الفترة لم تتوقف محاولات إقناعى بأن أكتب شيئآ آخر - غير المقالات الأسبوعية- يمكن أن تضمه دفتى كتاب ، ثم يحمله رف مكتبة يبقى عليها لعمر أطول - قليلا- من عمر جريدة سيارة يقرؤها الناس فى الصباح ثم ينسونها في المساء !

ولم يكن لدي الوقت . وربما لم تكن لدى الأعصاب لأننى كنت وما زلت أعتقد أن الكتاب مسئولية خاصة، تقتضى توفر استعداد آخر لم أكن واثقا أنني أملكه .

وظلت الفكرة تجيء وتروح على هذا النحو سنوات ...
حتى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠.

وبعد رحيل جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وجدت نفسى تحت ضغوط شديدة لكى أكتب عنه ، وكانت الاقتراحات تقدم نفسها إلى وكأنها دعوة إلى واجب لايحق لى أن أتحلل منه أو أتأخر عنه.

وفي تلك الأيام لم أكن- من ناحية نفسية بحتة- على استعداد، وحاولت أن أقنع كثيرين بأنه قد يكون من الأنسب أن أترك هذه المهمة لغيرى على أن أضع تحت تصرفه ما يكون لدى من حقائق ووثائق احتفظت بها في ذاكرتي أو على الورق في الفترة ما بين يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وهى فترة كان لى فيها الحظ والشرف بملازمة جمال عبد الناصر والحياة بالقرب منه ومتابعته على المسرح ووراء كواليسه بغير انقطاع . وكانت إلى جانب ذلك سنوات حوار لم يتوقف معه فى كل مكان وفي كل شيء.

ولكنى أحسست أن ما حاولت أن أقنع به كثيرين لم يكن مقنعا حتى لى، فإن بعضا من الذين راحوا يكتبون عن جمال عبد الناصر كانوا يأخذون ما أضعه تحت تصرفهم من الوقائع ثم يتصرفون فيه كما يحلو لهم . وهذا منطقى، لأن بعضهم مقيد باعتبارات معينة، كما أن بعضهم الآخر لديه أفكار مسبقة، وكانت عقدة المسألة أننى حين أعطى ما لدى لغيرى فإن ملكيته تنتقل إليه- وذلك لا أعترض عليه ،

ولكن العقدة تستحكم في أنني أفقد في نفس الوقت أى حق في توجيه استعماله توجيها أعتقد باتساقه مع الحقيقة- وذلك ما كنت أعترض عليه أحيانا .

واشترك عدد من الأصدقاء فى إقناعى بأننى لا أستطيع أن أتقدم بشهادة للتاريخ بالوساطة ، أى عن طريق أن أحكى لغيرى ، ثم ينقل هو للناس ، خصوصا إذا كنت أنا من الأصل كاتبا محترفا لا عمل لى غير أن أقدم للناس ما لدى من وقائع أو أفكار أستخلصها من عملى الصحفى ... والصحافة في صميمها تاريخ تحت الصنع!

وكان بين الذين حاولوا إقناعي صديقان :

أولهما دنيس هاملتون رئيس التحرير العام لمجموعة صحف طومسون وبينها جريدة التيمس اليومية، والصنداي تيمس الأسبوعية .

وكان ثانيهما هو ساى سالزبيرجر أحد رؤساء تحرير جريدة نيويورك تيمس .

وتحاورت مع الإثنين طويلا، في لندن وفي باريس في شتاء سنة ١٩٧٠ كان رأيهما أنه من الضرورى أن أكتب .

وقال لى دنيس هاملتون مرة :

- من غيرك يستطيع أن يكتب قصة حياة جمال عبد الناصركاملة؟ "

وقلت :

- قد أستطيع بغير تواضع وبغير ادعاء أن أقول : أنا ، ولكن المسألة ليست بهذه البساطة وإنما هناك نواح عديدة لابد أن أضعها في اعتبارى :

من ناحية فإن قصة جمال عبد الناصر مازالت مستمرة باستمرار التيار الذى قاده .

ومن ناحية أخرى فإن العالم العربى يعيش في أزمة خانقة . وقصة حياة جمال عبد الناصر قد تفجر الآن مالا داعى لتفجيره فى مصر أو فى العالم العربي .

ومن ناحية ثالثة فإنني مازلت- عاطفيا- تحت صدمة الرحيل ، ولست أريد أن أكتب مرثية في جمال عبد الناصر وإنما أنا أحلم بأن أكتب تاريخا ... أو على الأقل شهادة يأخذها التاريخ في تقديره عندما يحكم ويقرر ".

وقال دنيس هاملتون :

- لابد أن تكتب ... أكتب في أى شئ يتصل بقصة حياته ...

أكتب عن الصراع على الشرق الأوسط ... أكتب عن أزمة الشرق الأوسط ... لابد أن تكتب ولا تستطيع أن تعفي نفسك من هذه المهمة!

وعدت إلى مصر وخاطر الكتابة معى ... ولكن ماذا أكتب عن جمال عبد الناصر " وكيف ؟

وطرأت لى فكرة الإطار العام لهذا الكتاب .

إننى لا أريد أن أكتب قصة جمال عبد الناصر كاملة .. ليس الآن .

ولا أريد كتابة قصة الصراع على الشرق الأوسط ... ليس الآن .

ولا أريد كتابة قصة أزمة الشرق الأوسط ... ليس الآن .

وهكذا : وصلت إلى فكرة الإطار العام لهذا الكتاب عن طريق الاستبعاد . وليس عن طريق الاختيار الأول .

فكرت أن أكتب عن عبد الناصر وعمالقة عصره ، وكان عبد الناصر عملاقا ، وكان عصره عصر عمالقة التقى معهم جميعاً ، بالاتفاق أو بالاختلاف ، ونشأت عن لقائه بهم صداقات وصراعات تركت أثرها على العصر كله.

كان ذلك يعفينى من أسباب للحرج شديدة .. بينها ضرورات السرية التى مازال يتحتم أن نراعيها ونحن مـازلنا في معركة مصير.

ثم إن ذلك كان يعطينى الفرصة لمس جوانب إنسانية من حياة جمال عبد الناصر وحياة غيره من عمالقة العصر كما رآهم وكما رأيتهم .

وعرضت الفكرة على بعض من أثق فى رأيهم وبينهم دنيس هاملتون وساي سولزبيرجر وكانت حماستهم لها غلابة .. واستسلمت .

وفي ستة شهور من مارس سنة ١٩٧١ إلى سبتمبر ١٩٧١ سلمت الكتاب بالإنجليزية للناشر البريطاني الذى تولى أمر نشره ، وإذا الكتاب يلقى ما لم أكن أتوقعه ، وإذا هو على الفور يترجم إلى أكثر من عشرين لغة بينها الفرنسية والإيطالية والأسبانية واليابانية والألمانية والسويدية والأردية والهندية والصربية والبرتغالية... ولا أذكر ماذا أيضا .

وكنت حريصا على أن تنشر الفصول المسبقة من الكتاب في الصحافة العالمية على موعد الذكرى الأولى للرحيل... سبتمبر ١٩٧١، وقد كان ، برغم متاعب سببتها للناشرين بهذا الطلب الملح .

ومع أني قدمت للنشر المسبق فى الصحافة لفصول من هذا الكتاب باعتذار رجوت فيه أن يحكم عليه فى إطاره ، فهو ليس قصة حياة عبد الناصر ولا قصة معركة بعينها ضمن معاركه ، وأن لا يحكم عليه إجمالا من مجرد فصول اختيرت منه للنشر الصحفى لاتزيد نسبتها فيه على الخمس- فإن البعض في العالم العربي بالذات لم يقبل هذا الاعتذار .

راح البعض يتساءل : كيف أملك حق الكتابة عن جمال عبد الناصر؟

وبصرف النظر عن أشياء كثيرة واعتبارات لا أجد داعيا لذكرها فإن الكتابة عن جمال عبد الناصر حق لمن يستطيع ، ولم أع لنفسى يوما حق احتكارها . لقد كتبت عنه كما كتب غيرى فى العالم كله ولم يقم في وجه واحد منهم أى اعتراض .

ثم إن العالم المتحضركله يعرف هذا النوع من الكتابة عن شخصيات العصر.

إن الكثيرين من القادة كتبوا عن أنفسهم ... كذلك فعل " تشرشل " و " ديجول " و " أيزنهاور"

كما أن كثيرين من الذين أتاحت لهم الظروف- أو حتى لم تتح لهم - أن يعرفوا شخصيات العصر كتبوا عنها... كذلك مثلا فعل " شلزنجر" " وسورنسن " و " مانشستر " عن " جون كنيدى " لأن كنيدى لم يعش ليكتب عن نفسه.

وإذن ماذا ؟

ولقد راح البعض الآخر يدعى أننى- بما كتبت عن جمال عبد الناصر – جعلت من حياته مغامرة ولم أجعلها فكرة ، والغريب أن أصحاب هذا الادعاء في معظمهم كانوا من الذين قضوا عمرهم في عداء عبد الناصر.

ولقد كنت أتوقع شيئاً من ذلك... بسبب الظروف العربية الراهنة... وبسبب ظروفي الشخصية.
العالم العربي في هذه المرحلة مشغول بالاقتتال مع النفس... أكثر مما هو مشغول بالقتال ضد العدو وهذا طبيعى فى مرحلة التفاعلات العنيفة التي يعيشها .

وأما ظروفي الشخصية فإني أعرف أنها دقيقة، ذلك أننى تعرضت لليمين الرجعى فى العالم العربي ، كما تعرضت لليسار المغامر فيه وليس يهمنى أن أحصل على رضى أيهما، ولقد اعتبرت ومازلت أعتبر أن هذا الرضى... شرف لا أسعى إليه... ووسام ليس بين أحلامى أن أعلقه على صدرى !

لقد كتبت ما كتبت من قلب تيار أعرفه وأحسب نفسى منتميا إليه وهو التيار الناصري ... تيار الجماهير التي كانت مع جمال عبد الناصر فى اختياره التاريخى بالصورة البارعة التى سمعتها ذات مرة فى مطعم لاسير في باريس من أندريه مالرو مفكر فرنسا العظيم وكان يقارن ما بين عبد الناصر وديجول .
وقال لى مالرو:

- كلاهما واجه فى عصره اختيارا دوليا هائلا... وكلاهما رفض هذا الاختيار .

كلاهما قيل له : هل أنت مع أمريكا أم مع الاتحاد السوفييتى؟ " وكلاهما قال : لست مع أمريكا ولست مع الاتحاد السوفييتى ... وإنما أنا مع وطنى وأمتى".

ولقد كتبت ماكتبت أيضا وفى ذهنى أن " جمال عبد الناصر ليس أسطورة " كما قلت في مقال نشر فى ذكرى مرور الأربعين على رحيل عبد الناصر.

وكان رأيى- ولم أغيره- أن الذين يتصورون عبد الناصر أسطورة : لا يعرفون ماذا تعنى كلمة أسطورة... أو لا يعرفون ماذا يعنى اسم جمال عبد الناصر؟ !

إن عبد الناصر ليس أسطورة... وإنما هو إنسان.

ولقد كان إنسانا عظيما... وربما كان أعظم ما فيه إنسانيته، وكانت هذه الإنسانية هى طريقه إلى التزامه الفكرى، والتزامه السياسي، والتزامه القومى، والتزامه الدولى ... بل وأهم من ذلك كله التزامه الطبقى بالعمل والذين يعملون ... وأن العمل هو المصدر الوحيد لأى قيمة.

إن القصة الكاملة لجمال عبد الناصر سوف تكتب فى يوم من الأيام وأرجو أن تتيح لى الظروف فرصة المشاركة فى كتابتها كاملة.

ولقد تعرض جمال عبد الناصر- وهو في رحاب الله - لحملة لاتقل ضراوة مما كان يتعرض له وهو مازال بعد بين الناس .

بل إن هناك من قالوا:

- إن عبد الناصر بعيدا... أخطر من عبد الناصر قريبا لأنه في غيابه قد تتحول الناصرية من شخص إلى فكرة... ومن فكرة إلى تنظيم " وظنى أن الوقت الأنسب لقصة عبد الناصر كاملة سوف يجىء بعد أن تنتهى الأزمة الحالية في الشرق الأوسط ... وبعد أن تنسى إساءات بعض الذين حسبوا أنفسهم عليه ، وتصوروا أن بمقدورهم تحويل تراثه الكبير إلى إرث سلطة تحكم أو تتحكم .

وكان الإسهام العظيم لجمال عبد الناصر :

أنه ربط مصر بأمتها العربية.

ثم أنه ربط الأمة العربية- بما فيها مصر- بالعالم وقيمه وأحلامه.

ولقد تعرض عبد الناصر- بسبب ذلك- الى عداوات ضارية وحروب شرسة.

ثم إن البعض أساء فهم وظيفة جهاز السلطة الذى كان قريبا من جمال عبد الناصر.

لقد أجرى جمال عبد الناصر في مصر ومن حول مصر تحولات اجتماعية عميقة.

وفي عصر أصبحت فيه العقائد الاجتماعية المتصارعة ، دولا عظمى تمثل هذه العقائد فإن الصراع الاجتماعى داخل أى وطن من الأوطان- وذلك حدث فى بلدان عديدة- يمكن أن يتحول إلى حرب أهلية داخل الوطن الواحد... بحيث تصبح الطبقات المتناقضة فى مصالحها دولا عظمى داخلة فى الصراع . ولقد استطاع جمال عبد الناصر- كما قلت مرة- أن يؤمم الصراع الاجتماعى في مصر.

وربما كان جهاز السلطة ضريبة من ضرائب هذا التأميم .

ولقد سقط جهاز السلطة بعد عبد الناصر- رغم أن تجاوزاته اشتدت بعد رحيله- لأنه فقد وظيفته الاجتماعية.

لقد توقف مصدر التحولات الاجتماعية عن النبض بعد رحيل عبد الناصر وأصبح ضروريا أن نبحث عن صيغة أخرى ... ليس لتأميم الصراع الاجتماعى- فهذه المعجزة كانت مرهونة بشخصية تاريخية بعينها- ولكن لتقنين الصراع الاجتماعى ... لتقنينه بمزيد من الديمقراطية وتأكيد سيادة القانون ، فذلك هو العاصم الوحيد من خطر تحول الصراع الاجتماعى ... إلى حرب أهلية تغذيها قوى عظمى لاتملك أسلحة فقط... ولكن تمثل عقائد اجتماعية أيضا.

ولست أظنني بما قلت أدافع عن جهاز السلطة... فالسجل فيما يتعلق بي واضح فى هذه النقطة. ولقد هاجمت هذا الجهاز وتجاوزاته طول الوقت ، وكانت أعنف هجماتي عليه فى وجود عبد الناصر نفسه.

ماذا أريد أن أقول أيضا؟

تبقى بعض الملاحظات الشخصية.

ملاحظة شخصية : هى اننى مدين بالشكر في هذا الكتاب لكثيرين ..

مدين للعاملين في مكتبى بما قدموا إلى، حين احتفظوا لى بأوراقى مرتبة مبوبة أستطيع أن أرجع إليها بسهولة وحين أشاء .

ومدين لمكتبة الأهرام التى كانت عونا لى في الحصول على ما أردت أن أستوثق فيه من مناسبات ، وأسماء ، وتواريخ .

ومدين لقسم الترجمة في جريدة النهار اللبنانية، الذى قام محرروه بترجمة هذا الكتاب عن الإنجليزية بعد أن حصلت النهار على حقوق نشره باللغة العربية .

ولعلى مدين أكثر من ذلك لكثيرين ... لم أذكر أسماءهم وإن لم أنس فضلهم .

ثم ملاحظة أخرى وأخيرة

لقد كان بودى لو كتبت ذلك الكتاب بالعربية وقدمته بأسلوبى الذى اعتاده القارىء ، ولكنى في الحقيقة كنت أكتب عن عبد الناصر والعالم ... للعالم الذي عرف عبد الناصر واهتم بسيرته .

ولقد كان هناك اقتراح بأن أتولى ترجمة الكتاب بنفسى ... لأن القارىء العربي - وقد اعتاد أسلوبى- سوف يجد غريبا عليه أن يقرأ لى بأسلوب آخر... ولكن ذلك كان معناه فى رأيي أننى سوف أكتب الكتاب مرتين!

ومن أجل الذين يقرأون... فلقد وجدت أن مرة واحدة تكفى .

محمد حسنين هيكل

عبد الناصر ..
الرجل.. والظرف التاريخي

كان جمال عبد الناصر- رئيس مصر وزعيم العالم العربي - يرقد متمدداً- على فراشه فى حجرة نومه الواسعة الرطبة، وراء المصاريع الخشبية الخضراء ، فى منزله المتواضع بالقاهرة .

كان قد أصيب بنوبته القلبية الثانية قبيل ذلك ، عند الأصيل، ولكن عندما حانت الساعة الخامسة، تجاوز اعتراضات طبيبه ونهض ليمد ذراعه ويفتح الراديو " الترانزيستور" الكبير الموضوع على الطاولة المجاورة لسريره .

وملأت الحجرة أنغام اللحن المميز الذى تمهد به القاهرة لنشرة الأخبار، وعاد يتمدد فى رقدته، يتابع موجز النشرة ، ثم أقفل- الراديو قائلا: " لم أجد الخبر الذى كنت أتوقع أن أسمعه! "

وبعد ذلك بدقائق، أسلم الروح ، وغادر العالم الذى لن يعرف قط ماذا كان يتوقع ، هذا العالم الذى وجد فيه واحداً من أكثر قادته السياسيين إثارة للجدل ، واختاره العرب . رمزاً لكرامتهم الضائعة وآمالهم التى- لم تتحقق .

كانت الأحداث الدولية- التى أفضت في النهاية إلى وفاته - قد زلزلت العالم وهزته هزاً عنيفاً ، وكانت تتتابع بسرعة متناهية وخطر متزايد ، الحدث تلو الآخر. فكانت هناك حوادث خطف الطائرات . ثم اندلاع الحرب السافرة بين الملك حسين وقوات المقاومة الفلسطينية ، ثم عبور القوات السورية الحدود الأردنية . وما تلا ذلك- كله من تهديد الولايات المتحدة وإسرائيل بالتدخل . الذى كان مشفوعاً بمخططات مفصلة للهجوم على الأردن .

وفى خلال هذه الأحداث كلها كان الرئيس عبد الناصر يعمل بلا كلل أو ملل من أجل السلام بين العرب ، وقد كان يختلف مع كل من الملك حسين وزعيم المقاومة الفلسطينية ياسر عرفات . وعندما قابل حسين فى الإسكندرية في الثامن عشر من أغسطس (آب) ، أى قبل وفاته بخمسة أسابيع ، شعر عبد الناصر بأن الملك يستهين بقدر المقاومة الفلسطينية وأنه كان مخطئاً عندما قال إنه يستطيع أن يقضى عليهم تماماً خلال ساعات .

وكذلك، فعندما قابل زعماء المقاومة كان رأيه أنهم كانوا مخطئين عندما قالوا له إنهم فى استطاعتهم أن يجهزوا على الملك فى سبع ساعات .

وقال للطرفين معاً : " عليكما أن تتعايشا، فما من أحد منكما يستطيع التخلص من الطرف الآخر، وهذه حقيقة من حقائق الحياة عليكم معاً أن تسلموا بها ".

وقال للملك حسين : " تقول إنك تستطيع أن تتخلص منهم ؟ حسناً . إذا كنت تقول إنك قادر فربما كنت قادراً بالفعل . و لكن الثمن سيكون باهظاً للغاية . فكيف سيكون في وسعك أن تحكم بلداً بعد حرب أهلية ستكلفك ما بين عشرين وثلاثين ألف نسمة ؟ إنك في هذه الحالة سوف تحكم مملكة من الأشباح الهائمة".

وقال للفدائيين : " لا تخالوا أن في وسعكم مواجهة جيش حديث. فإذا ما قرر تصفيتكم ، فإن ذلك فى قدرته، ولذا لا تبالغوا فى تقدير قوتكم ، ويجب أن تحاولوا إيجاد صيغة للحياة والنضال من الأردن ".

وأدت جهود عبد الناصر لإحلال السلام فى الأردن إلى عقد مؤتمر القمة في القاهرة الذى حضره عشرة من الرؤساء والملوك العرب [**عقد في الفترة من ٢٢ سبتمبر إلى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، وحضره رؤساء وملوك وممثلون عن ١٠ دول عربية هي : السعودية ، الكويت ، مصر ، ليبيا ، السودان ، الاردن، تونس ، لبنان ، اليمن ، ورئيس اللجنة المركزية للمقاومة الفلسطينية**] .

وكانت جميع متناقضات العالم العربي تتجلى في اجتماعهم الذى انعقد بينما كان القتال دائراً فى الأردن. ولعب عبد الناصر دور الوسيط والمصلح طوال الأيام الثمانية التى استغرقها المؤتمر لأنه كان يريد جاهداً ويائساً تجنب الانقسام والتكتل، بين مختلف الفئات .

ولكن ذلك كان عسيراً فى معظم الأحيان . فكان ياسر عرفات قد أمكن تهريبه من عمان متخفياً فى "دشداشة " كويتية وكوفية بيضاء حتى يتمكن من حضور مؤتمر القمة. ووصل مفعماً بالعداء للملك . وما لبث الملك حسين أن اتصل شخصياً بالتليفون وطلب الحضور ليرد أمام المؤتمر على ماجاء في التقرير المقدم من الرئيس جعفر نميرى [كان مؤتمر الرؤساء العرب قد بعث بوفد إلى عمان برئاسة جعفر نميري لتقصي الحقائق في الأزمة بين الاردن والمقاومة] ، والذى ألقى عليه اللوم وحمله تبعة استمرار إراقة الدماء. غير أن بعض الحاضرين عارضوا اشتراكه .

وكان رأى عبد الناصر هو أنه يجب على الملك أن يحضر مادام هدف المؤتمر وضع حد للمذابح .

غير أن الرئيس القذافى انفجر معترضاً على ذلك قائلا : " ما الفائدة من إحضاره؟ إنه معتوه ، إنه مجنون".

واعترض الملك فيصل آل سعود على الفور قائلا : " كيف تقول ذلك عن ملك عربي ؟ "

وأجابه القذافي قائلا : " ولكن أين والده ؟ أليس هو محتجزاً فى مصح عقلى في اسطنبول ؟ إنه مجنون.. قطعاً مجنون .. إن الجنون وراثي فى تلك العائلة .. إنهم جميعاً مجانين " .

وناشد الملك فيصل الرئيس عبد الناصر أن يتدخل لدى القذافى : " كيف نقبل أن يصم أحد زملائنا ملكاً عربياً سيشترك معنا فى مناقشاتنا غداً ، بالجنون ؟ " .

وبدأ الرئيس عبد الناصر يبتسم ، بينما مضى القذافى يقول : " أجل .. والله إنه مجنون .. وينبغى علينا أن نستدعى غداً بعض الأطباء لإرساله الى مستشفى للأمراض العقلية حتى نتبين ما إذا كان مجنوناً أم لا" .

وتدخل عبد الناصر ضاحكاً : " يبدو لى أننا جميعاً مجانين . وأقترح أن نستدعى بعض الأطباء للكشف علينا جميعاً ليقرررا من منا مجنون ومن الراشد ".

وعندئذ قال الملك فيصل : " طيب... لا بأس يا حضرة الأخ عبد الناصر. ولكننى أريد أن أكون أول من يكشف عليه الأطباء، فربما وجدوني مجنوناً وساعتها أكون قد تجنبت عذاب الاشتراك فى محادثات كهذه".

وعندما وصل الملك حسين للاشتراك فى الاجتماع كان يصطحب اثنين من الضباط معه.. وكان الثلاثة مسلحين بالمسدسات، وكان ياسر عرفات هو الآخر يتمنطق بمسدس حول خصره ، وكذلك كان القذافي يحمل مسدساً حول وسطه هو الآخر .

وأشار عرفات إلى الملك حسين وصاح : " هل ترون هذا المجرم ، يقتلنا ثم يأتي بعد ذلك إلى هنا ". وقام الحاضرون بتهدئته، غير أن الملك فيصل تطلع إلى من حوله وقال : " أعوذ بالله.. إننا في ترسانة سلاح، وفي مهب كل هذه المشاعر الملتهبة.. " .

ولم يشأ الملك فيصل أن يجلس إلى جوار أى عضو فى المؤتمر يحمل مسدساً ، ومع ذلك فقط احتفظ حاملو المسدسات بها.

وقد كان اجتماعاً يسوده التوتر البالغ ، ولكن- كما هى التقاليد أحياناً ! - فقد راح الرجال الذين كانوا على استعداد لقتل بعضهم البعض فى الصباح يتبادلون القبلات الأخوية فى المساء .

وحصل الرئيس عبد الناصر على موافقة كل من الملك حسين وياسر عرفات على وقف إطلاق النار. ودهش الجميع من هذه النتيجة. فقد كانت كل الظواهر تشير إلى استحالة ذلك : حدة المشاعر ، وعمق الخلافات الجوهرية ، ومن ثم فقد بدا الفشل أمام العالم الخارجى أمراً محتما لا مفر منه . على أن عبد الناصر استطاع بمقدرة سياسية وصبر لا تحده حدود أن يقنع الإخوة المتخاصمين بتوقيع الاتفاق .

كانت هذه هى آخر خدمة قدر له أن يقدمها إلى الأمة العربية، ذلك أن الجهد والعمل والقلق المتصل كلفه غاليا.

فقد كان في هذه المرحلة رجلا قد حل به التعب وأنهكه المرض ، فقد كان يعاني من مرض السكر منذ سنة ١٩٥٨، وكنتيجة لمرض السكر أصيب بحالة موجعة من تقلص شرايين ساقيه. وطلب منه الأطباء أن يقلع عن التدخين . وقال عبد الناصر عن ذلك :

" لقد أطفأت سيجارتي الأخيرة ، وقطعت على نفسى وعداً بأن لا أشعل سيجارة غيرها : وشعرت بعدها بأننى ودعت صديقاً عزيزاً على . فلقد كان التدخين : الترف الوحيد الذى كنت أستمتع به ، والآن فهذه المتعة الأخيرة قد ضاعت هى الأخرى ".

وخضع عبد الناصر بعد ذلك لدورة علاج بالمياه الحارة في الاتحاد السوفييتى ، ولفترة ما شعر بتحسن كبير، ولكنه لم يستطع أن يلتزم حرفياً بالبرنامج البالغ القسوة الذى حدده له الأطباء - فعندما قالوا له إنه ينبغى أن يتجنب أى جهد جسماني أو عاطفى . أجابهم بقوله : " كيف يسعنى ذلك ، إن هذه هى حياتي كلها" .

وكان زملاؤه يحثونه دائماً إلى الإخلاد للراحة . ولكنه لم يكن- يفعل ذلك . وفي ١١ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٩ أصيب بأول نوبة قلبية وكتم النبأ عن الجميع فيما عدا سبعة أشخاص كان ينبغى أن يعرفوا. وأعلن يومها أنه أصيب بحالة من الانفلونزا الحادة ، وأنه سيتغيب عن مكتبه لمدة ستة أسابيع . بل إن النبأ كتم حتى عن السيدة قرينته، غير أنها بدأت ترتاب في حقيقة ما يعانيه عندما وجدت المهندسين ينصبون مصعداً كهربائياً في المنزل .

وتقرر الاستعانة بالمشورة الطبية من الخارج . وأرسلت رسالة سرية إلى موسكو، حضر إلى القاهرة على أثرها الدكتور شازوف وزير الصحة السوفييتى، وهو أخصائي بارز فى أمراض القلب ، وبصحبته فريق من الخبراء .

وجاء تشخيصهم مطابقاً تماماً لتشخيص طبيب الرئيس الخاص الدكتور الصاوي حبيب، وقال الدكتور للرئيس إنه لا يجوز أن يعالج بالمياه المعدنية مرة أخرى في الاتحاد السوفييتى قبل مرور خمسة أعوام على الأقل . وأدرك عبد الناصر أن عليه أن يحتمل حالة القلب التي كان يعاني منها بالإضافة إلى الآلام المستمرة فى ساقيه.

وفكر فى الاستقالة، ولكنه لم يفعل لأنه أحس بأن الأمة العربية قد تفسر استقالته وكأنها يأس من النصر ، فاستمر يعمل طويلا وبكل طاقته. والواقع أنه كان يعتقد دائماً أن قدره لن يمهله حتى يتمتع بحياة طويلة.

وعندما سئل عما إذا كان ينوى أن يكتب مذكراته ليشغل نفسه عندما يعتزل أجاب : " إن الذين يعيشون على طريقتى لايمتد بهم العمر طويلا ".

خرج عبد الناصر من مؤتمر القمة إنساناً منهكاً متعباً . وقال لأصدقائه: إنه سيضع قدميه فى الماء الدافيء والملح، وهى وصفة قروية قديمة لتخفيف الألم، ثم ينام يوماً كاملا، و بعدئذ سيبحث احتمال الإخلاد إلى الراحة .

ولكن كان عليه أولا أن يودع الذين شاركوه في مؤتمر القمة. ولما حاول الرئيس القذافي أن يسافر في هدوء بحيث لا يزعج الرئيس بأكثر- مما ينبغى- من مراسم الوداع ، أصر عبد الناصر على اصطحاب الرئيس الليبى إلى المطار في سيارته ومرافقته حتى الطائرة .

وكان آخر المسافرين أمير الكويت الأمير صباح السالم الصباح .

وكان عبد الناصر قد وعد قرينته بأن يعود مبكراً ليتغدى مع حفيدته هالة وحفيده جمال . ثم استقل سيارته ليتوجه إلى المطار قائلا، بنبوءة عفوية، إنه ذاهب إلى " الوداع الأخير ".

وأحس بوعكة في المطار، وعندما استقل أمير الكويت طائرته طلب الرئيس إحضار سيارته إلى المكان الذى كان يقف فيه- وكان فى العادة يمشى إلى سيارته- وطلب من سكرتيره أن يستدعى الدكتور الصاوى إلى بيته. وكان أفراد عائلته جميعاً في انتظاره ليتناولوا معه طعام الغداء، ولاحظوا أنه كان متعباً ومرهقاً ، وتحدث الرئيس إليهم برهة ثم دخل إلى غرفته قائلا إنه لا يستطيع أن يأكل شيئاً .

ووصل الدكتور الصاوى فخرجت السيدة قرينته من حجرة نومه احتراماً لرغبات زوجها ، ذلك أنها ما كانت تمكث إطلاقاً فى حجرته عندما يكون معه شخص آخر.

وفحص الدكتور الصاوى الرئيس، وعندما أيقن أن العلامات تدل على نوبة قلبية ثانية، استدعى الدكتور منصور فايز والدكتور زكى الرملى ، الأخصائيين اللذين كانا يعالجانه منذ النوبة الأولى .

وجرى أيضاً استدعاء أولئك الذين ألفت منهم لجنة لتسيير دفة الأمور فى البلاد منذ إصابته بالنوبة الأولى . ووصل الأخصائيان وواصلا العلاج الذى كان قد بدأه الدكتور الصاوى . وتم تجهيز معدات القلب الطبية الخاصة التى سبق أن نصبت فى بيت الرئيس بيما كان أفراد اللجنة يتجمعون فى البيت.

وتمدد الرئيس على سريره مرتدياً بيجامته الزرقاء . وقبيل الساعة الخامسة بدأ نبضه ينتظم وبدأت خفقات قلبه تصبح طبيعية تقريباً . وبدأ يتحدث إلى الأطباء .. وقال له الدكتور فايز إنه يحتاج إلى إجازة طويلة ، ولكنه أصر على أنه يريد الذهاب إلى الجبهة " حتى أرى أولادنا قبل أن أقوم بأى أجازة".

وغادر الدكتور الرملى والدكتور فايز الحجرة . وعندئذ هم قليلا ليفتح جهاز الراديو. ولما لم يسمع ما كان يتوقعه حثه الدكتور الصاوى مرة أخرى على أن لا يتحرك وأن يخلد إلى الهدوء تماماً ، قائلا: لا داعي لأي مجهود الآن . فقال عبد الناصر :

" لا يا صاوى... الحمد لله .. دلوقت أنا استريحت.. "

تلك كانت كلماته الأخيرة. قالها وانسدل جفناه على عينيه وهوى ساعده الذى كان يضعه على صدره واستقر بجواره .

وأدرك الذين كانوا ينتظرون خارج الغرفة خطورة الموقف فتدفقوا إليها يشهدون بأعين تنكر كلياً ما ترى .. الأطباء يناضلون لإنقاذ حياة قائدهم .

كان قد سبق أن شاهدوه بعد إصابته بالنوبة القلبية الأولى جالساً يأكل الجبن الأبيض المفضل عنده .. أما الآن فشاهدوه ممدداً في هدوء كامل على فراشه وقد فارقته الحياة .

ولم يتحرك ولم يهتز إلا عندما أرسل جهاز الصدمة الكهربائية ثلاث شحنات راعدة عبر جسده الطاهر. كان المرجو أن تؤدى الصدمات الكهربائية إلى دفع قلبه لأن يخفق من جديد . لكن قضاء الله كان قد حل وماكان شيء ليعيد الخفقان إلى قلب عبد الناصر.. فقد تحطم ذلك القلب .

وعندما انتقلت عدوى يأس الأطباء وسقوط الأمر من أيديهم إلى المتجمهرين في الحجرة . راح هؤلاء وقد بدت عليهم الامارات الأولى لموجة الحزن العظمى التى عصفت بالعالم العربي .

التفت نائب الرئيس حسين الشافعى صوب القبلة وركع يصلي . ووقف أنور السادات خلف الرئيس، بجانب السرير ورفع رأسه إلى السماء وراح يتلو آيات من القرآن .

أما أنا فلم أستطع أن أصدق ماحدث . وكنت أراقب الأطباء وأردد د بصوت منخفض :" يارب.. يارب غير ممكن .. يارب غير معقول .. " .

كان جميع الموجودين عالمين بانحراف صحته لكن أحداً لم يكن يتوقع أن يموت هكذا. كانت الخشية من الاغتيال ماثلة دائماً فى أذهانهم فقد كان عبد الناصر الرجل الذى يقف فى قلب الأحداث العاصفة في الشرق الأوسط ، وجر على نفسه خصومة أعداء أقوياء جداً وكان الكثيرون منهم يتمنون إزاحته لو استطاعوا ذلك .

لم يكن يحفل بسلامته الشخصية إلا أنه لم يكن يعترض على ترتيبات الحراسة التى يتخذها الآخرون من أجل المحافظة على سلامته. وفي الوقت ذاته كان دائماً يتوجه نحو الناس ويتوغل في الجماهير فكانت حمايته مهمة عسيرة جداً . وكان من شيمته أن لا يحفل بالخطر قائلا :

" لقد وضعت روحى على كفي وها أنا خارج وهى معى ".

أما الآن وقد آبت روحه إلى ربها آمنة مطمئنة فإن الذين كانوا حوله أبوا أن يصدقوا ما شاهدوه . ودخل وزير الحربية وحث الأطباء على متابعة جهودهم . ولم يصدق أحد الحقيقة إلا عندما غطى الدكتور الصاوى وجهه بيديه وانطلق ينتحب - دون أن يستطيع السيطرة على نفسه .

غطوا بالملاءة وجهه وأبلغوا نعيه إلى قرينته فدخلت الحجرة وأزاحت الملاءة وقبلته بينما كان الحاضرون يغادرونها تاركيها وحيدة معه .

وعلى الفور عقد اجتماع عاجل مشترك للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء، وانعقد الاجتماع فى قاعة مجلس الوزراء في قصر القبة حيث كان الوزراء - الذين كانوا فى زيارة قوات الجبهة- يصلون إلى مقر الاجتماع وهم لايزالون يرتدون بذلة القتال .

وتركوا كرسيه شاغراً بينما كانوا يقررون ما يجب عمله، ولكن الإحساس بوجوده كان غامراً فى الحجرة كلها. وتقرر إبقاء جثمانه فى عيادة قصر القبة ثلاثة أيام يشيع بعدها فى جنازة رسمية .

أوقفت الإذاعة بث البرامج العادية واقتصرت على إذاعة تلاوات من القرآن الكريم . وأحس الناس بأن شيئاً مهماً قد حدث ولكن ما من أحد اشتبه بأن الرئيس عبد الناصر توفى .

وما لبث نائب الرئيس- الرئيس أنور السادات الآن- أن أذاع النبأ على العالم فى كلمة مقتضبة. على أن أثرها كان فورياً وهائلا لا يصدق .

إندفع الناس من بيوتهم في جوف الليل واتجهوا إلى محطة الإذاعة على ضفاف النيل ليتأكدوا مما إذا كان ما سمعوه صحيحاً .

وإنه لمن الغريب أن ينجذب أفراد الشعب المصرى- منذ مجاهل التاريخ- إلى النيل دائماً في لحظات الانفعال القصوى . وفى تلك الليلة التقت وسائل الاتصال الحديثة مع مشاعرهم العريقة .

وفي البدء شوهدت جماعات صغيرة فى الشوارع . ثم امتلأت الشوارع بالمئات ثم بعشرات الألوف ومن ثم احلولكت الشوارع بالناس وغصت بهم وأصبح التحرك أو الانتقال مستحيلا .

وتحلقت خارج مبنى الإذاعة حلقات من النسوة يندبن قائلات : " مات السبع... السبع مات ! ".

وترددت صيحة الندب هذه شتى أنحاء القاهرة وانتشرت كالصدى إلى القرى والأقاليم حتى اجتاحت مصر كلها.

وفى تلك الليلة- وفى الأيام التى تلتها- ندبه الناس في حزن جارف غلاب .

وسرعان ما أخذ الناس يتدفقون على القاهرة من كل أنحاء مصر حتى غصت العاصمة بزهاء ١٠ ملايين منهم .

وأوقفت السلطات سير القطارات لأنه لم يعد في القاهرة مكان يأوى إلية القادمون بينما كانت المؤن تتناقص بسرعة.

ومع ذلك ظل المواطنون يتدفقون ، فجاءوا بالسيارات وعلى ظهور الحمير وسيراً على الأقدام .

وجاءت ألوف الناس من الأقطار العربية بالطائرات والبواخر وأصبحت المناسبة هجرة أحزان جماهيرية جماعية.

وانتشر النبأ فى العالم يزرع الدهشة والحزن أينما تردد .

ففى عمان توقف القتال .. وأفرغت دبابات الملك حسين مدافعها من الذخيرة وخرج الفدائيون من، خنادقهم يصرخون ويهتفون باسمه. وحقق عبد الناصر في موته ما ناضل نضالا قاسيا من أجله فى حياته.

وفي بيروت أشهر الرجال مسدساتهم وبنادقهم وأفرغوا فى كبد السماء طلقات الحزن..

وفي طرابلس الغرب دخل العقيد معمر القذافى وحيدا إلى غرفته يبكى ولم يخرج منها حتى اليوم التالى. وبكى الفريق حافظ الأسد- وزيرالدفاع السورى آنذاك ورئيس الجمهورية اليوم- وقال : " كنا نتصرف كالأطفال ونتخبط فى تصرفاتنا لكننا كنا نعلم بأنه موجود لتصحيح أخطائنا ويرد عنا آثارها " .

بل حتى في تل أبيب علقت جولدا مائير على النبأ قائلة : " من الذى أطلق هذه النكتة السخيفة ".

أما الرئيس نيكسون الذى كان من المقرر أن يركب حاملة الطائرات " ساراتوجا " لإجراء مناورات فى الشطر الغربي من البحر الأبيض المتوسط - حيث كان الأمريكيون يريدون أن تسمع أصداء مدافع الأسطول السادس في القاهرة- فقد ألغى المناورات .

ونظم مجهول مصرى أغنية جنائزية لازمتها : " الوداع يا جمال... الوداع يا حبيب الملايين " وسرت هذه الاغنية مسرى النار في الهشيم وأصبحت على كل شفة ولسان .

كانت بلحنها تنطوى على روح مصر الحزينة . وكان من الممكن أن تنظم لجنازة رمسيس الثاني ..

اجتاح حزن الشعب الجنازة واستبد بها. واستقدمت إلى القاهرة خمس فرق من القوات للسيطرة على المشيعين ، لكن الجماهير كانت من الكثافة بحيث جرفت الجنود بعيداً .

ولم يستطع هؤلاء الجنود على كثرتهم أن يبقوا طريق الجنازة سالكاً بالقرب من مبنى مجلس قيادة الثورة القديم على النيل عبر حديقة التحرير حيث وضح نعشه المزين بالورود على منصة مكسوة بالحرير الأخضر.

وهناك ودع الزوار من رؤساء الدول والحكومات جثمان الرئيس .. ولاقى كثيرون منهم المصاعب في الوصول إلى حديقة التحرير . فاقتضى الأمر نقل كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى من السفارة الروسية إلى الحديقة في قارب بخارى بسبب كثافة الجماهير . وجرفته أحزان الناس فتطلع إليهم وقال: " يجب أن تكبحوا جماح حزنكم ".

وكان من المقرر نقل رؤساء الحكومات إلى فندق هيلتون لمشاهدة موكب الجنازة . إلا أن كثيرين منهم استحال عليهم الوصول إلى هناك .

ولم يكن هناك شيء قط يقوى على كبح جماح الناس . وقد مزقت ثلاثة أعلام كانت تلف النعش واقتضى الأمر فى ساحة محطة السكة الحديد نقل جثمان الرئيس من عربة المدفع التى باتت مهددة بالتحطم، ووضع فوق سيارة مصفحة.

وفى النهاية وبعد مسيرة سبعة أميال فى بحر عاصف من الجماهير وصل النعش إلى المسجد الذى تقرر أن يوارى فى تربته.

كان ذلك المسجد موضع اهتمام خاص منه فى حياته وقد بنى في منطقة ذات ذكريات خاصة بالنسبة إليه. فبالقرب منه تقوم الشقة الى كان يقطنها وهو يعد للثورة . وبعد ذلك بقليل يقع مقر القيادة الذى احتله الضباط الأحرار في تلك الليلة الحاسمة . أما البيت الذى عاش فيه ومات رئيساً فلم يكن يبعد عن المسجد كثيراً .

وورى فى الثرى تحت شاهد رخامى نقشت عليه الآية القرآنية التى استشهد بها الرئيس أنور السادات عندما نعاه :

" يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية "

-٢-

في السابع والعشرين من يناير (كانون الثاني) ١٩٧٠ كان هناك وفد مصرى يطوف بأقطار الشرق الأقصى ليشرح سبب عدم إمكان تمديد وقف إطلاق النار إلى أجل غير مسمى . وفي ذلك اليوم استقبل رئيس وزراء الصين شوين لاى أعضاء الوفد بمكتبه في المدينة المحرمة في بكين .

ورحب شوين لاى بالوفد الذى كان يرأسه الدكتور لبيب شقير، رئيس مجلس الأمة آنذاك ، والسيد محمد عبد السلام الزيات وزير الدولة للشئون البرلمانية. وبعد أن جلسوا وتبادلوا التحيات الرسمية اندفع شوين لاى فورا إلى الخوض في مسألة وفاة الرئيس عبد الناصر. وقال لأعضاء الوفد:

- هل تستطيعون الإجابة عن سؤال يحيرنى أود أن أطرحه عليكم؟

وردوا عليه قائلين : طبعاً... بكل تأكيد...

- إن سؤالى هو: لماذا مات عبد الناصر ؟

وشعر أعضاء الوفد بالحيرة !.. لكنه مضى يلح في استجوابه :

- متى ولد عبد الناصر ؟

- في ١٥ يناير (كانون الثانى) ١٩١٨.

- ومتى توفى ؟

- في ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠.

- إذن فقد مات عن اثنتين وخمسين سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً ... فهل هذا ممكن؟

ورد أعضاء الوفد الذين كان الذهول لا يزال مسيطراً عليهم بأنه مات نفاذاً لإرادة الله وقضائه.

وهنا قال لهم شو:

- يجب ألا نحمل الله مسئولية ما نفعل . لابد من سبب . لقد مات عبد الناصر شاباً . فسن الثانية والخمسين هى سن صغيرة. إننى الآن فى الثانية والسبعين ولا أزال أعمل وأنا كما ترون في صحة جيدة.

إننى لا أستطيع أن أتصور كيف مات. لقد كان رئيس دولة وزعيما للعالم العربي وكانت تتوافر له أفضل العناية الطبية. فكيف سمحتم له بأن يموت ؟ "

وخيم الصمت على أعضاء الوفد . إذ لم يكونوا يملكون جواباً على سؤال شوين لاى . ولم يطل البحث عن الجواب فقد كان جاهزا لديه :

" سأوضح لكم السبب . لقد مات من الحزن و القهر. مات كسير القلب . أما الذنب في ذلك فهو ذنب الاتحاد السوفييتى . فقد خدعه السوفييت و دفعوه إلى مأزق ثم تخلوا عنه وتركوا فؤاده يتحطم وينكسر".

ورد أعضاء الوفد محتجين بأن الأتحاد السوفييتى لم يتخل عن مصر. مشيرين إلى أنه يمدها بالسلاح. ورد عليهم شوين لاى :

- ببيعكم السلاح تقصدون ؟

وراح أعضاء الوفد يناقشون شوين لاى قائلين : إن هذا ليس صحيحا، وإن الاتحاد السوفييتى عوض مصر كل الأسلحة التى فقدتها في معارك يونيو (حزيران) ١٩٦٧ وبلا ثمن . فمصر لا تدفع سوى ثمن الأسلحة الجديدة .

ورد شوين لاي

" كيف تستطيعون الشراء . يجب ألا تشتروا. فمن غير المتصور أن تهبط الدولة الاشتراكية الأولى إلى مقام تاجر أسلحة ".

كانت مناقشة شوين لاي للموضوع تنطوي - بالطبع - على جميع أصداء النزاع الصينى- السوفييتى الذى كان شوين لاى يمارسه على الطريقة الصينية .

ولكن حقائق الموقف تختلف عما ذكره شو وأكثر تعقيداً مما يبدو .

والواقع أنه لكي يفهم المرء طريقة حياة عبد الناصر و مماته ، عليه أن يتفحص وضع العالم الذي عمل وناضل فيه. فقد واجه عالماً تعتريه عمليات التطورات التاريخية التي كانت تتلاحق بسرعة محمومة بعد الحرب العالمية الثانية . كانت الإمبراطوريات القديمة تتقوض وتتهاوى وكان الفرنسيون والبريطانيون الذين اقتسموا فيما بينهم - طويلا - آسيا والشرق الاوسط . ينسحبون من كل مكان ولم يعد في وسع السلطات الاستعمارية القديمة أن تحكم كما كانت تفعل من قبل . فقد اجتاحت موجة القومية والايديولوجيات الجديدة الشعوب التي عانت طويلا من الاستعباد . وقد كانت هذه الحقبة - التي عاشها عبد الناصر - فترة صراع وغليان .

ودخلت الشرق الاوسط دولتان جديدتان تتنافسان على النفوذ في المنطقة : الولايات المتحدة.. والاتحاد السوفييتى.. وقد سعتا إلى ملء الفراغ الذى خلفه البريطانيون والفرنسيون .

وفي نهاية الحرب كان الخصام قد بدأ بين الأمريكيين والبريطانيين بشأن الحقوق والامتيازات البترولية فى الشرق الأوسط . وكان الصراع قد بدأ فعلا .

وصحيح أن الولايات المتحدة أصبحت دولة عالمية ولكن الأمريكيين لم تكن لديهم خبرة تذكر لأداء هذا الدور فكانوا يعتمدون أكثر مما يجب على العمل السرى فى سعيهم إلى بسط نفوذهم . وفى إحدى المراحل أثرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على التطورات في المنطقة مما يتجاوز دور وزارة الخارجية الأمريكية نفسها .

أما دور القوة الجديدة الأخرى ، أى الاتحاد السوفييتى ، فقد كان دورها أكثر تعقيداً ، ذلك أن الاتحاد السوفييتى يجسد شيئين : فهو دولة كبرى وأيديولوجية عالمية في الوقت نفسه .

وكان الشيوعيون قد أثاروا فضول شعوب العالم العربي التى أصبحت ترغب فى أن تعرف ما لديهم من أقوال واجتهادات. ولم تقم بين مصر والاتحاد السوفييتى علاقات ديبلوماسية حتى دخلت روسيا الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن نسخ البيان أو " المانيفستو " **[" المانيفستو " هو البيان الذي أصدره كارل ماركس وفريديريك انجلز سنة ١٨٤٧ حول الصراع الطبقي بين البورجوازية والبروليتاريا ، والذي يدعو العمال إلى الاتحاد والثورة لاستخلاص حقوقهم المغتصبة ..]** الشيوعى متداولة فى مصر. وكان الشيوعيون القلائل من العرب موضع اضطهاد . ولم يكونوا موضع اهتمام من الجماهير الراضية المكتفية بتعاليم الإسلام، وإن يكن بعض المثقفين والمفكرين كانوا يعتبرونهم من الرواد وكانوا يتساءلون عن كنه آرائهم .

وفى الوقت ذاته كانت الأحزاب السياسية القديمة في كل أرجاء العالم العربي مفلسة من الأفكار، عارية عن النفوذ، لأن العالم كان يتغير بينما لم تكن هى مستعدة للتغير، ومن هنا نشأ فراغ فكرى إلى جانب فراغ القوة وبدت فكرة الشيوعية ذات جاذبية كمينة لأنها أثبتت جدواها في الحرب ضد الفاشية كأساس لمجتمع ذى نسيج قوى .

وعندما هرب " المانيفستو " الشيوعى إلى مصر أحدث شيئاً من الإثارة ، فقد قرأه المثقفون وظنوا أنهم عثروا على مفتاح يمكن أن يفتح لهم جميع الأبواب السياسية والاجتماعية ، وانجذب الرئيس عبد الناصر نفسه إلى الأفكار الشيوعية لكنه نبذها في النهاية ، كمنهج للحياة لسببين : القومية.. والدين ..

وقد درج على مناقشة الشيوعيين على هذا النمط .

" إننى أسلم بحقيقة العالم المادى . ولكن كيف نشأت الحياة إذن؟ ربما كنت مستعداً للتسليم بنظرية النشوء والارتقاء على أننى أريد أولا أن تخبروني كيف نشأت الأرض وكيف نشأ الكون . وإلى أن تفعلوا ذلك سأظل مؤمناً بالله " .

وكدولة عالمية كانت روسيا مهتمة- تقليدياً - بالبحر الأبيض المتوسط بسب موانئ مياهه الدافئة.. وكان خروشوف يعبر عن ذلك بقوله :

" انكم ساحتنا الخلفية ".

ذلك كان الوضع العالمى عندما دخل عبد الناصر إلى المسرح السياسي .

كان النظام القديم يتقوض ويتهاوى . وكانت دولتان استعماريتان ترحلان وتجلوان بينما بدأت تطل الدولتان الجديدتان المتنافستان، إحداهما تستخدم العمل السرى لتحقيق أغراضها والأخرى تستخدم العقيدة.

وفي العالم العربي كان ذلك زمن الصراع والتنازع الفكرى . فقد كان العرب يحاولون التماس هدى السبيل لكنهم كانوا ممزقين موزعين سبلا واتجاهات مختلفة .

فقد كان هنالك - أولا- سبيل الإسلام الذى كان مؤيدوه يدفعون بأن الإسلام هو السبيل الوحيد وأن على الأقطار الإسلامية أن تتضافر معاً ، وأن تتحرك معاً . وكانت تلك حجة نورى السعيد فى الانضمام إلى حلف بغداد. وكان يقول إن وسع العرب حمل الاتراك والباكستانيين على القتال من أجلهم .

وكانت ثمة سوابق تاريخية لهذه الحجة .

فبعد مائة عام من إقامة نابليون القصيرة في مصر، وهى الإقامة الى فتحت عيون مصر على العالم، أخذ مصطفى كامل يناضل ضد المحتلين البريطانيين لكنه لم يكن في ذلك يناضل من أجل استقلال مصر فقط بل أنه كان يتصور إمكانية العودة إلى رباط الإمبراطورية العثمانية باعتبارها إمبراطورية اسلامية..

كان يشد مناصرى هذا السبيل شعور قوى بالانتماء إلى أمة إسلامية عظمى واحدة . وكان يناقشهم في هذا الاتجاه المؤمنون بالقومية العربية الذين كانوا يدفعون بأنه إذا شملت الأمة الإسلامية كل الشعوب الإسلامية فإنها ستضم شعوباً متنائية من أفريقيا وآسيا تمتد بلادها حتى الفيليبين.

وكان هؤلاء يصرون على القول، بأن الروابط الحقيقية لوحدتهم القومية ولتطورهم لا يمكن أن تأتى من المؤمنين بالإسلام ، المنتشرين فى أرجاء العالم ، إنما يجب أن تنبثق من القومية العربية.

وقد وجدت أفكار القوميين العرب هؤلاء تعبيرها الأول فى لبنان ومصر.

وفي لبنان كان رأى المفكرين والمثقفين هو أن التطور المستند كلياً إلى الإسلام من شأنه أن يستبعد عدداً كبيراً من الناس الذين يؤلفون أجزاء حيوية من العالم العربي ، ذلك أنه لن يكون في وسع أقباط مصر ونصارى لبنان - مثلا- أن يندمجوا كلياً في منهج إسلامي للحياة . ولذا نادى المفكرون والمثقفون بدلا من ذلك بوحدة عربية قوامها الجغرافيا والتاريخ والحضارة واللغة لتكون الإطار الذى ينفذ من خلاله العرب نحو المستقبل..

وهكذا فإن التناقض الأول كان في الأساس بين فكرة الوحدة الإسلامية وفكرة الوحدة المستندة على روابط القومية العربية.

وظهر التناقض الثانى عندما بدأت عدة أقطار عربية تحصل على استقلالها. فقد ناضلت هذه البلاد في سبيل حريتها في أجواء مختلفة ضد دول استعمارية مختلفة. فقد كافح المصريون البريطانيين في إطار أسلوب معين . وناهض السوريون الفرنسيين بأسلوب آخر. وكانت المواجهات متباينة. فقد كان البريطانيون أكثر مرونة من الفرنسيين . فمثلا لم يقصف البريطانيون القاهرة - هذا إذا استثنينا السويس، لأن هذه حكاية أخرى- بينما قصف الفرنسيون دمشق . فالواقع أن الأمزجة والاهتمامات تختلف، حتى على صعيد الاستعمار!

وقد أدى هذا الوضع إلى اكتساب الدول المختلفة استقلالها بوسائل مختلفة ، ومن هذه الفوارق، قام تناقض آخر " بين أولئك الذين يطالبون بالاستقلال الوطنى الكامل والذين يستشعرون الانتماء إلى القومية العربية ككل .

وازداد هذا النزاع حدة بسبب الاتجاهات المتباينة التى انتهجتها تلك البلاد المختلفة بعد أن حققت استقلالها.
فقد قر رأى اللبنانيين على أن الاقتصاد الحر هو الأفضل لهم بينما تبنت مصر نوعا من الاشتراكية وبقيت المملكة العربية السعودية مجتمعا ملكياً تقليدياً .

وثمة تياران آخران عظيمان كان لهما نفوذ بالغ على العالم العربى فى هذه الفترة :

كان أولهما: هجمة القومية اليهودية عليهم ممثلة فى الصهيونية .

وكان ثانيهما : الأثر الذى أحدثه في المجتمع العربي تطوير حقول النفط والثروة الهائلة التى أخذت تتدفق في هذه الحقول . فقد أدى هذا الثراء إلى انتفاضة في العالم العربى .

وكان بذخ أثرياء البترول الشيوخ مخيفاً في سوقيته وتبذله. واتسامه بانعدام المسئولية. فقد كان بينهم من يشاهدون وهم يقودون سيارات الكاديلاك بينما تجلس الماعز إلى جوارهم فيها، وكان هناك شيخ هوايته أن يلعب بعقد من اللؤلؤ بين أصابع قدمه . وكان آخر يخيط فى طيات ثيابه ملايين الجنيهات بل إنه كان يحتفظ بمحتويات خزينة بلاده تحت سريره .

واغتنى بعض الأفراد القلائل بشكل فاحش خارق ، لكن الأغلبية بقيت من الفقراء المدقعين الذين كان أكثرهم يعيش على حافة الوجود.

ورفعت الثروة الجديدة ، والطريقة التى كانت تستخدم بها، حواجز جديدة فى العالم العربي بدلا من أن تزيل الحواجز وتحقق الوحدة . كذلك أقامت هذه الثروات الحواجز الطبقية التى ثبت أنها قوة يجب أن يحسب حسابها ، لأن الأثرياء حاولوا أن يشتروا النفوذ والسلطة وغالباً ما نجحوا في ذلك .

وبعثت هذه الصراعات والتناقضات الغليان فى العالم العربى . وأشد ما كان هذا الغليان اضطراماً في مصر.

فقد نشبت تلك القرون- من الاستغلال على يد الأجانب . والقهر على يد الإقطاعيين وحملة الأسهم الغائبين عن الأرض، والاضطهاد على يد صغار الموظفين - نشبت أنيابها عميقاً فى الروح المصرية.

كان ثمة توق وحنين إلى الحرية وإلى الكرامة وإلى حق الفرد فى أن يكون فخوراً بنفسه وببلاده . لكن الأمل فى تحقيق ذلك كان يبدو ضئيلا .

فعندما كان الملك فاروق يحكم مصر فى قصره كان نصف في المائة من سكان مصر يستأثر بنصف الدخل القومى كله . وكان الفساد قد استشرى وترعرع في ظل الحرب العالمية الثانية وتضخم إلى أبعاد خيالية.

وهوت الأحزاب السياسية وانهارت وراحت تهيم بلا هدف ولا غاية. ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الفخر ولم تكن هناك كرامة.

أما الدرك الذى انحدرت إليه مصر فيتمثل فى أن ثلاث سيدات بتن يحكمن مصر فى الأعوام الأخيرة من الحرب وفي الفترة الى تلتها مباشرة .

كن : الليدى كيلرن الزوجة الشابة (الإيطالية المولد) للسفير البريطاني . والسيدة زينب الوكيل الزوجة الشابة لمصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد الذى وقع عليه اختيار اللورد كيلرن رئيساً للوزراء . والملكة نازلى أم الملك فاروق .

أما القوى الحاكمة في مصر في ذلك الحين فكانت : السفارة البريطانية ، والقصر الملكى، وحزب الوفد. وكان في كل من المواقع الثلاثة سيدة نافذة مهيمنة .

على أن شيئاً لم يمس الكرامة المصرية ولم يسئ إليها أكثر من أحداث ٤ فبراير (شباط)١٩٤٢ حين وجه اللورد كيلرن إنذاراً إلى الملك فاروق يطالبه بأن يعين مصطفى النحاس رئيساً للوزراء .

ولما رفض الملك استدعى اللورد كيلرن قوة مصفحة بريطانية ووجه الدبابات إلى قصر عابدين لتقتحم بواباته.. واضطر الملك إلى الخضوع تحت تهديد مدافع الدبابات .

كان تأثير هذا الحدث في المصريين ساحقاً ومدمراً . فمرة أخرى أجبر حاكم مصرى على أن يخضع لمشيئة أجنبى . ومرة أخرى أجبر المصريون على أن يهيلوا التراب على رؤوسهم ، غير أن هذا الحدث كان له تأثير الكهرباء فى الضباط الشبان فى الجيش حيث قرر أحدهم - جمال عبد الناصر- ألا تجترع مصر قط كأس الذل مرة أخرى بهذه الطريقة.

إن بداية حركة الضباط الأحرار كحركة متكاملة ومتماسكة يمكن أن ترد إلى اللحظة الى سددت فيها أول دبابة بريطانية مدفعها إلى قصر الملك فاروق .

فلم يعد للضباط الأحرار من حديث سوى الحرية واسترداد كرامة بلادهم المطعونة وبدأ عبد الناصر يخطط لثورته..

وفى الوقت ذاته كانت ثمة قوة ثورية أخرى تكتسب الدعم والتأييد فى مصر وأعنى بها جماعة الإخوان المسلمين .

وفي إحدى المراحل انجذب عبد الناصر إلى الإخوان المسلمين ، كما فعل من قبل مع الشيوعيين ، غير أن أسلوب جماعة الإخوان فى تفجير القنابل أوالاغتيال لم يكن يلائم ميوله . وكانت محاولة الاغتيال الوحيدة الى تورط فيها محاولة فاشلة . ومن ثم فإن ولولة زوجة الضحية المقصود بالمحاولة- التى تصاعدت إذ دوت الطلقات- ولدت فيه مقتا للإرهاب حرمه النوم . وقد تنفس الصعداء وارتاح بالغ الارتياح عندما علم أن الرصاصات كلها أخطأت الضحية، وأقسم أن لا يعود إلى ذلك مطلقاً .

كان ذلك المقت للإرهاب هو الذى أنقذ حياة الملك فاروق ليلة خلعه عن العرش . ذلك أن كثيرين من الضباط الأحرار كانوا يرغبون فى قتله ، وكانت حجتهم وهم يطالبون بذلك هى : " فلنحاكمه ونشنقه ". إلا أن عبد الناصر رد عليهم : " إذا كنتم تنوون، شنقه فلماذا تزعجون أنفسكم بمحاكمته؟ " وظل يرافع تسع ساعات للحفاظ على حياة فاروق ، ليس من أجل شخص فاروق وحده وإنما من أجل سائر أولئك الذين كانوا سيموتون حتما نتيجة إعدام فاروق .

وقال لرفاقه : " إن كل مطالعاتى للتاريخ علمتنى درساً واحداً يتكرر دائماً مرة بعد أخرى ، وهو أن الدم يستسقى الدم وأن إراقة الدماء سوف تؤدى إلى مزيد من إراقة الدماء " .

وانتصر رأيه في النهاية وجنبت مصر الإرهاب . غير أن الإخوان المسلمين لم يكونوا من أنصار هذا الرأى ، فقد استخدموا الاغتيال سلاحاً سياسياً .وراحوا ينسفون عدداً من دور السينما والنوادى الليلية بالقنابل . وأصبحت الجريمة عملة رائجة . وأصبحت مصر بركاناً من المشاعر المكبوته المتفجرة بالعنف.

تلك كانت طبيعة العالم الذى اقتحمه عبد الناصر في ليلة الثاني والعشرين من يوليو (تموز) ١٩٥٢ عندما استولى الضباط الأحرار على الحكم .

فقد كان الشرق الأوسط يمر بتغيير ثورى يرافقه انهيار الإمبراطوريات القديمة ودخول قوى ودول عالمية جديدة إليه . وكانت الدول العربية تحاول التماس طريقها إلى الاستقلال وما بعده ، وكانت مصر كالثمرة التى نضجت وأصبحت على أتم استعداد للثورة .

تلك كانت الأوضاع التاريخية الى صاغت قدره وحولته إلى رمز للكرامة المفقودة والآمال التى لم تتحقق.

لقد حملت هذه الأوضاع كاهله حملا أثقل من أن يطيقه أى إنسان وصاغت حياته وهيأت الأسباب التى أدت إلى مماته.

وعندما اندفع الناس يركضون في الشوارع ليلة وفاته صارخين : " السبع مات " تجاوبت مصر كلها بصيحة الحزن والرثاء هذه . ذلك أن رب العائلة وحاميها يعرف عند العرب عادة باسم " السبع " وكان أولئك الناس يرثون الرجل الذى أصبح في الواقع التعبير الروحى للعرب ، وحامى شرفهم وأحلامهم.
مرت حياة السبع بثلاث مراحل : مرحلة السبع طليقاً . ومرحلة السبع مغلولا مصفداً . ومرحلة السبع جريحاً .

استمرت مرحلة الحرية الأولى حتى غزو السويس سنة ١٩٥٦ حيث جعلته الحملة الثلاثية الرعناء، البريطانية- الفرنسية- الإسرائيلية دون قصد منهم ، شخصية عالمية. ذلك أن حماقة إيدن أمدت عبد الناصر بمركز وهيبة دوليين وأطلقته إلى خارج حدود مصر بدلا من أن تدمره . ومنذ ذلك الحين لم يعد اهتمامه مقصوراً على شئون مصر وحدها .

كان متمرداً على الدوام وكانت ثورته سمة تنبع على وجه التأكيد من رد فعله حيال الآراء والسنن التقليدية المتزمتة التى كان يحملها أبوه الذى كان- ككاتب في مصلحة البريد- فرداً صغيراً في البيروقراطية المصرية.

وكان شغوفاً بأمه السكندرية ذات المزاج المختلف كلياً عن مزاج أبيه.

وعندما كان طفلا يافعاً بعث به أهله إلى إحدى مدارس القاهرة حيث أقام فى منزل عمه وأخذ يبعث برسائل طويلة يبث فيها أمه حبه ولم يستطع أن يفهم لماذا لم تكن ترد عليه.

وعندما عاد إلى الإسكندرية وجد أنها توفيت وأن والده تزوج من جديد . كان لم يزل في الثامنة عندما انهار عالمه وتقوض . ومنذ ذلك الحين أصبح ثائراً عنيداً .

وأرسل عبد الناصر إلى عائلة أمه فى الإسكندرية ليستكمل دراسته، وهناك تورط للمرة الأولى فى السياسة، فقد شاهد مظاهرة تفرقها الشرطة فى الشارع ودون أن يعرف حتى دافع المظاهرة ، انضم يقاتل في صفوف المتظاهرين . كان يكفيه أن تكون المظاهرة ضد النظام القائم .

واعتقلته سلطات الشرطة وأمضى ليلته في السجن ، حيث عرف أن رفاق المظاهرة من أعضاء حزب " مصر الفتاة " فانضم إلى الحزب مباشرة ، وخدمه بالمشاركة في توزيع مجلته.

لم يحسن اعتقاله من العلاقات بينه وبن والده . فقد كان بينهما احتكاك دائم . وعندما تخرج من المدرسة انطلق يبحث عن مهنة تبقيه بعيداً عن البيت الأبوى .

وحاول الالتحاق بالشرطة واجتاز كل الامتحانات اللازمة إلى أن واجه لجنة برئاسة لواء يحمل لقب باشا. وكانت مهمة هذه اللجنة أن تحقق فى مستواه الاجتماعى . وسأله اللواء : " ماذا يعمل أبوك؟ " وعندما أجابه : " كاتب فى مصلحة البريد " قال له اللواء : " يا بنى إنك لاتصلح هنا... ".

لم يكن من شيء يمكن أن يزيد- عمداً- من كراهية المتمرد اليافع للنظام القائم قدر لهجة كهذه .

وبعد خيبة أمله تلك عكف على دراسة الحقوق لمدة ستة أشهر وكان ناجحاً في دراسته، ولما كان ذلك يعنى استمرار بقائه فى البيت فقد ترك الدراسة ودخل الكلية الحربية حيث وجد فى إطار الانضباط العسكرى : الحرية لتنمية تفكيره ، والقراءة والتخطيط للمستقبل .

ولعل من المفارقات اللافتة للنظر في حياة عبد الناصر أنه ظل - برغم كونه ثائراً حياته الثورة - إنساناً محافظاً في معيشته الشخصية. فقد رسخت في روحه ونفسه بعض التربية التقليدية التى ثار عليها.

كان قد تعلم أن جهنم هى بئس المصير وأن كل الأطفال يدخلون الجنة تلقائياً . وكانت فكرة جهنم تخيفه إلى حد أنه- وهو في السابعة- قرر مع صبى آخر أن لايخاطر بالذهاب إلى هناك فقررا أن يقدما على الانتحار. وهكذا ذهبا إلى مكتب البريد وسرقا شيئاً من الشمع الأحمر الذي كان والده يحذره دوماً من كونه ساماً . وأكلأ الشمع ورقدا فى انتظار الموت . على أن أقرب مكان إلى الجنة وصلا إليه، كان مغصاً فى المعدة و " علقة " من والده .

لقد صاحبته هذه البساطة الأصيلة طول حياته.. فلم يهتم إطلاقاً بالنساء أو المال أو الطعام . وبعد أن تربع على كرسى الحكم حاول السياسيون القدامى إفساده ، لكنهم فشلوا فشلا ذريعاً .

كانت حياته العائلية نقية نقاء خالصاً .

وكان دائماً يحاول أن يتناول طعام الغداء مع زوجته وأبنائهما الثلاثة وبنتيهما الإثنتين . وكانوا غالباً ما يلتقون حول المائدة ليأكلوا طبقه المفضل- الجبنة المصرية البيضاء - وهم يشاهدون الأفلام السينمائية، متعته الوحيدة .

أما بالنسبة إلى المال فقد أرسلت إلية ملايين الجنيهات من التبرعات ليوجهها في أى ناحية من نواحى الخير يراها وكانت موضوعة فى الحساب الرسمى رقم (١) فاستخدمها لمصلحة مصر . وعندما مات كان في هذا الحساب مليونان ونصف مليون من الجنيهات تحولت كلها إلى حساب رئيس الجمهورية الذى تولى بعده فلم تكن مالا شخصياً وإنما كانت مرقومة ومسجلة كحساب عام ، وفى نفس الوقت فإن عبد الناصر لم يترك في حسابه الشخصى سوى ٦١٠ جنيهات.

ومن حيث الطعام فقد كان يهوى الأطباق المصرية التقليدية المؤلفة من اللحم والخضر والأرز. وكان طعامه من البساطة بحيث كان يشكل أحياناً عبئاً على رفاق سفره .

ففي ذات مرة كان يسافر على رأس أحد الوفود إلى يوغوسلافيا- على متن اليخت السابق للملك فاروق- عندما اكتشف زملاؤه المقربون أنهم يأكلون الطعام المعتاد البسيط بيما كان أعضاء الوفد الأقل شأنا والذين لا يتناولون طعامهم مع عبد الناصر يتناولون الأصناف والأطباق الشهية المعدة إعداداً بديعاً. فرتبوا الأمر مع كبير الطباخين ليقدم إليهم على المائدة شيئاً خاصاً .

وعندما وصلت الوجبة الخاصة فى زينتها المبتكرة تطلع إليها الرئيس عبد الناصر وقال : " إنها تعج بالألوان كالإعلانات في المجلات الأمريكية " .

وبدأ يتذوق بعض الكافيار. لكنه ما لبث أن تباطأ بينما كان رفاقه يستمتعون بما لذ وطاب . وفي تلك اللحظة وصل النادل يحمل صينية من أكلته العادية البسيطة ، ذلك أن كبير الطباخين كان يعرف أن عبد الناصر سوف يفضل أكلته المعتادة ..

وفي مناسبة أخرى ، أثناء مرحلة التقشف التى تلت معركة السويس ، كان وزراؤه يجدون مشقة وهم يحاولون حذف بعض الكماليات من لائحة المواد المستوردة . وطلب عبد الناصر أن يرى اللائحة وشطب فوراً " الاسبرج " والشمبانيا وكبد الأوز وعشرات من الكماليات الأخرى قائلا : " إن الأشياء التى لا أعرف عنها شيئاً لايعرف عنها المصرى العادى كذلك أى شيء ".

ولكن ذلك كله جاء فيما بعد، عندما غلت الأحداث يديه . أما ماكان يهمه ويعنيه عندما كان فى الكلية الحربية وبعد ذلك كضابط ناشىء يخدم في السودان ، فهو أن يطالع وأن يقرأ بقدر ما يستطيع . وكان مفتتنا بالتاريخ وبوحدة ألمانيا وبالثورة الفرنسية بصفة خاصة . وكان للروايات التى قرأها عن الثورة الفرنسية تأثيرها البين في مسلكه بعد ذلك . لقد تأثر بالغ التأثر برواية " قصة مدينتين " وبسردها لأحداث الإرهاب الذى سيطر على باريس ، وربما كان تأثره هذا هو الذى أنقذ الشعب المصرى من الكثير من إراقة الدماء بعد نجاح ثورته، ذلك أنه جعله بالغ التيقظ إلى أن الإرهاب يمكن أن يلي كل الثورات.

وقد فتن كذلك بشخصية بطل رواية " الزهرة القرمزية ". و هي شخصية الزعيم الخفي الذى كان يقود المقاومة دون أن يظهر إلى العلن . وكتب قصته عن المقاومة الشعبية التى جابهت أول غزو بريطاني لمصر في مدينة رشيد فى ١٨٠٧ وكان بطلها شخصية مصرية تشبه " الزهرة القرمزية " .

وفى وسع المرء أن يتبين أثر ذلك في إجراءاته ومسلكه عندما خلع فاروق . فقد ظل فترة وراء الكواليس وفى خلفية الأحداث . وكان هو الزعيم الخفي الذى وضع اللواء محمد نجيب كواجهة شعبية.

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عكف الضباط الشبان فى الجيش المصرى على البحث عن سبيل تحقيق حرية مصر. وقد اعتقد عدد قليل منهم أن أفضل ما يفعلونه من أجل ذلك هو التعاون مع الألمان على أساس مبدأ " عدو عدوى هو صديقى " إلا أن عبد الناصر لم يوافق قط على هذا المنطق . وقد خدم في كتيبة مشاة ساعدت على حماية المؤخرة البريطانية أثناء معركة العلمين ولكن عندما وقع إذلال اللورد كيلرن للملك فاروق . وطد جمال عبد الناصر، - المتمرد دوماً - قدمه بقوة على طريق الثورة .

وظل كالزهرة القرمزية، متخفياً على الدوام ، مجهولا إلا لدى زملائه في حركة الضباط الأحرار. وإنها حقاً لمأثرة باهرة لقدراته أن بقى على تنظيم الضباط الأحرار خفياً لايعلم بأمره ولم يكتشفه أحد. والواقع أنه إن يتمكن أى فرد في مثل ذلك الوقت الذي يسود فيه الشك عموماً من أن يجمع حوله فرد آخر- من مختلف المناقب والأخلاق والأمزجة وأن يبث فيهم الثقة التى تمكنهم من تحقيق المهمة التى نذرهم لها- لهو أقرب شىء إلى المعجزات .

وجاء ثمة عامل مؤثر آخر أثر تأثيراً عميقاً في حياته سنة ١٩٤٨ عندما شاءت له أقداره أن يكون أحد اللذين حاصرهم الإسرائيليون في الفالوجة والذين قاتلوا برغم ذلك ببسالة وواصلوا القتال رافضين الاستسلام . وكان خلال ذلك يتحدث عبر خطوط الجبهة مع الإسرائيليين المحاصرين في للفالوجة، وكان الحديث يدور حول الكيفية التى أجبر بها اليهود بريطانيا على التخلى عن انتدابها على فلسطين .

من هذه التجربة كذلك اكتسب إحساساً جديداً تجاه الأمة العربية، وعاد من الفالوجة مقتنعاً بأن الدول العربية المختلفة تؤلف شعباً واحداً له حضارة واحدة ولغة واحدة .

وتجاوز تفكيره حدود مصر ولم يعد محصوراً في القومية المصرية فحسب إنما تعداه كذلك إلى التفكيرفي حالة العالم العربى أجمع .

وقد تضافرت كل هذه المؤثرات- المطالعة والتجارب والخبرة ووقائع الإذلال (القومية والفردية)- في ليلة الثاني والعشرين من يوليو (تموز) ١٩٥٢عندما ارتدى البكباشى جمال عبد الناصر بذلته وقبل

زوجته وأودع أخاه كل ماكان لديه من مال (٣٠ جنيها) ليعني بأمر عائلته إذا ساءت الأمور ، ومضى ليقلب فاروق ويغير مجرى التاريخ العالمى .

لم يتوغل تلك الليلة فى كثير من التفاصيل الدقيقة ، إنما برهن فيها على قيمة طريقته الخالية من أى تعقيد و التفكير والتنفيذ. ذلك أن كثيرين من زملائه أرادوا أن يقوموا بانقلاب كلاسيكى فيحتلوا القصر الملكى وبقية الدوائر الحكومية لكن عبد الناصر قال لهم : " سيطروا على الجيش ننجح " . وهكذا ركزوا على احتلال قيادات الجيش ومحطة الإذاعة .

وعندما تم لهم ذلك كانت الثورة قد تمت عمليا . وقال عبد الناصر: " إننا بسيطرتنا على الجيش : إنتزعنا العصا التى كان الملك يهدد بها الشعب " .

ولو أن الثوار حاولوا احتلال القصر لكان حرس القصر قد اضطروا إلى إطلاق النار وأريقت الدماء .
وقد اضطر الضباط الأحرار إلى القيام بانقلابهم قبل موعده الذى كان متوقعاً لأن أحدهم كان قد انتهك اتفاقية الصمت التى دامت طويلا وبشكل فعال ، وتحدث فى الأمر إلى أخيه الذى كان في سلاح الطيران والذى قام بتحذير رجال الملك .

ومرة أخرى واجه عبد الناصر الخطر بأسلوب غير معقد فقد جادل بأن وقت التراجع قد فات وبأنهم إذا أخفقوا فإن الذين سيتبعون خطاهم سيعرفون على الأقل أنهم فعلوا خير مافي طاقتهم من أجل مصر .

وهكذا اندفع رجال عبد الناصر يعتقلون قادة الجيش لدى وصولهم إلى مفترق الطرق خارج ثكنات العباسية حيث دعوا إلى عقد اجتماع في مقر القيادة العليا للتخطيط لسحق الثورة .

ومرت إحدى اللحظات الخطيرة بالنسبة لعبد الناصر بالذات إذ إعتقله بعض رجاله بناء على أوامر أصدرها هو .

ذلك أنه لما كان معظم الضباط الشبان من أصحاب الرتب الصغيرة ، فقد أصدر أوامره باعتقال جميع الضباط من رتبة عقيد (بكباشى) فما فوق . وفى تلك الليلة تأخر وصول الكتيبة ١٣ إلى القاهرة فركب عبد الناصر سيارته منطلقاً خارج القاهرة - بملابس البكباشي- ليتبين ما حدث لأفراد هذه الكتيبة. والتقى بهم في مشارف هليوبوليس لكنهم ما أن شاهدوا رتبته على كتفه حتى سارعوا باعتقاله. ولحسن الحظ فقد سمع بعد قليل صوت أحد أصدقائه فناداه وجاء الصديق فتعرف عليه وأطلق سراحه .

وفى هزيع لاحق من تلك الليلة أنقذ عبد الناصرحياة الملك فاروق . ولو أنه قتل فاروق لأصبح على الفور أكثر الناس شعبية في العالم العربي غير أنه كان لم يزل الثائر المؤمن بثوريته وكان يقوم بما يراه صواباً . فأنقذ فاروق وقدم اللواء محمد نجيب إلى الملأ باعتباره زعيم الثورة .

حقق محمد نجيب شعبية كبرى واغترف كل المجد بيما ظل عبد الناصر خلف الصفوف فى الظل، يفكر دائماً ويبدو دائماً للناس رجلا عبوساً ، وهكذا أسيء فهمه .

إنه لمن الغريب أن الرجل الذى أصبح موضع حب كل إنسان بدأ موضع سوء فهم من الناس . وكان الموضوع الذى يتردد في خطبه فى ذلك الحين : " لن أستجدى تصفيقا... ولن أستجدى هتافا " .
فكان في خطبه يجرح الجميع .

غير أن نظرة الناس بدأت تتغير عندما رأوا محمد نجيب يغازل السياسيين القدامى . أما التغيير الحقيقى فقد جاء- كما هى العادة فى حياة عبد الناصر- بحادثة درامية واحدة .

فقد وجهت إليه ست طلقات نارية بينما كان يخطب في الإسكندرية [**في ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤**] . فلم يهتز له روع ، إنما ظل واقفاً في مكانه يتحدى القاتل بينما الرصاصات تدوى وهى تخطئه . وبينما كانت الرصاصات تدوى راح يناشد الناس قائلا:

" إخواني المواطنين ... فليبق كل منكم في مكانه... إننى حى لم أمت .. ولو مت فإن كلا منكم جمال عبد الناصر... ولن تسقط الراية "..

كان عملا يدل على شجاعة خارقة. كماكان بلا شك نقطة تحول في حياته. فمذ ذلك الحين بدأ الناس يقابلونه بحرارة. وبهذا التأييد الشعبى الجارف دخل عبد الناصر المرحلة الثانية من حياته. مرحلة السبع الطليق . فبدأ صراعه مع البريطانيين حول الجلاء عن منطقة القناة ، ثم رفضه حلف بغداد، ثم خصومته مع إيدن وحلمه ببناء السد العالى فى أسوان وقراره بتأميم قناة السويس وكانت هذه كلها تعبيراً عن الروح المتمردة الثائرة . فقد كان يشعر بأنه حر فى أن يفعل ما يشاء .

ثم وقع غزو السويس وكسب عبد الناصر انتصاراً سياسياً دوليا ساحقاً . فقد دمر آخر قواعد الاستعمار في مصر وأصبح زعيم العرب بلا منازع وواحداً من القادة السياسيين العالميين .

لكن ضخامة انتصاره بالإضافة إلى المسئولية الى ألقيت عليه كانت تعنى أن الأيام الخالية لمرحلة السبع الطليق قد ولت إلى غير رجعة . فقد أصبح الآن سبعا مصفداً تغله السلطة الى أودعتها بين يديه أحداث السويس .

فقد هب الشعب العربى بأسره يدافع عنه ويناصره فنسفت خطوط النفط وانقطع البترول عن أوروبا الغربية ودخل العالم العربى في مرحلة تحول كان عبد الناصر رمزاً وتجسيداً له. وبلغت شعبيته مبلغاً زجه عفوياً فى السياسات الداخلية لكل قطر عربي . فقام حزب ناصرى فى كل بلد عربي وكان هذا مما سبب الغيرة وولد الانشقاق .

فقد كان بعض تلك الأحزاب ذا قيمة مشبوهة وكان يقول في ذلك بلهجة آسفة : " تعرفون... إنني أستطيع أن أسيطر على من أختار لكننى لا أستطيع أن أسيطر على من يختارنى " .

كان هذا هو التفسير الذى دفع به إلى الملك سعود الذى كان بالغ الغيرة منه في ذلك الحين . وفى الواقع كان كل أصدقائه بين الزعماء العرب غيورين منه وكان كل أعدائه من الحانقين الناقمين .

تجاوزت " دائرته الانتخابية " حدود تشريع الدولة المصرية وكان يعتمد على تأييد الجماهير العربية الغفيرة خلافاً ونقيضاً لمشيئة طبقاتها الحاكمة ورغبتها . وكان سبيله الوحيد للتأثير فى تلك الدائرة هو أن يعطيها المثل ، فكان يناضل ، حيثما استطاع سبيلا ، من أجل الحقوق العربية وليس من أجل الحقوق المصرية فحسب .

وأدى ذلك به إلى خصومات مع بريطانيا وأمريكا لا بل حتى مع الاتحاد السوفييتى .

كان قد حقق حلماً استهوى فؤاد كل عربي ، فقد ضم سوريا إلى مصر ووحدهما وبدا أنه أرسى بذلك حجر الأساس فى بناء الوحدة العربية الكبرى . لكن الذى بدأ بداية باهرة انتهى نهاية مفجعة حينما نقضت سوريا الوحدة ، وبعد ذلك استدرج إلى ميدان اليمن الذى بدا في مبدأ الأمر يسيراً هيناً ثم ثبت أنه أمر عسير حقاً .

وألقى عليه اللوم فى كل ما وقع في الشرق الأوسط من متاعب واضطرابات ، وكان رده على اللوم هو: " ليس ما يحدث من فعلى، إن كل ما أفعله هو رد فعل فى الواقع ". وقال للمستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية وقتذاك : " إذا كنت تظن- أن لدى على مكتبى " أزراراً أضغطها فتنشب ثورة فى العراق آو يحدث انقلاب في بلد كذا أو تنفجر قنبلة هنا أو تقوم مظاهرة هناك فإنك بذلك تغدق على قوى خارقة لا أملكها .. فلا تبالغ في أهميتي "..

كانت تلك فترة السبع مقيداً مصفداً حيث كانت تغله أحداث خارج نطاق سيطرته ولم يعد حراً فى أن يكون ثائراً متمرداً . كان قد أصبح رمز العالم العربي وبهذه الصفة كان عليه أن يحارب بقية العالم بالنيابة عن القومية العربية . كان دوراً مغلا أدى مباشرة إلى المرحلة الأخيرة من حياته ، مرحلة كان فيها السبع جريحاً .

كان جمال عبد الناصر ملتزماً بأفكار الوحدة العربية وكان يشعر بالتزام أدبى وسياسى وأيديولوجى حيال الشعب الفلسطينى . فكان يحس بأن عليه واجباً تجاه كل أولئك الذين فقدوا أرضهم وبيوتهم وأجبرهم الإرهاب الصهيوني على مغادرتها .

ولكنه كان يكره الحرب . كان يكرهها من وجهة نظر شخصية ووجهة نظر قومية.

فمثلا لم يؤلف كتائب الفدائيين إلا بعد الغارة الإسرائيلية على غزة فى ٢٨ فبراير (شباط) ١٩٥٥ التى قتل فيها ٣٩ مصرياً . وقد كانت تلك الغارة تعبيراً عن سياسة بن جوريون التى تهدف إلى فرض السلام بالقوة . سياسة محاولة حمل الدول العربية على التفاهم معه بقوة السلاح .

ومرة أخرى اضطر عبد الناصر إلى أن يقوم برد فعل .

وفى ذلك الحين لم تكن مصر قد بدأت تتلقى الأسلحة من الكتلة الشيوعية ولم تكن مجهزة لخوض الحرب لكنها اضطرت- في مواجهة سياسة بن جوريون القائمة على الغارات الشاملة- إلى الدفاع عن نفسها، وهكذا جرى تنظيم الفدائيين كإجراء دفاعى وكبديل لايصل إلى حد الحرب .

فقد كانت تجربته الشخصية للحرب في العلمين والفالوجة قد علمته أن يكرهها . وكلما كان يتفقد الجنود الشبان ويرى الضباط الكبار فخورين بأدائهم كان يقول : " نعم إن رؤية هؤلاء الشبان تبعث على السرور لكننى لا أستطيع الاستمتاع بها كسائر الناس لأننى أحس دائماً أننى قد أضطر يوما إلى إصدار الأمر إلى هؤلاء الشبان بالانطلاق إلى الموت ... "

وبدأ خصامه مع حزب البعث السورى سنة ١٩٥٩ عندما بدأ الإسرائيليون يحولون مياه الأردن وعندما أراد منه السوريون القيام بعملية محدودة ضد المشروع الهندسى الإسرائيلى على بعد نحو ٦ كيلو مترات عبر الحدود.

فعارضهم الرئيس عبد الناصر في مجلس الوزراء ، وكانت حجته الأولى في ذلك أنه ربما كان من السهل أن تبدأ حرباً لكنه ليس من اليسير مطلقاً إنهاؤها " .

وكانت حجته الثانية أن فكرة الحرب المحدودة وهم في الواقع . إذ قال : " إننى مستعد للقيام بحرب محدودة إذا جاء أحدكم بضمان من بن جوريون بأنه هو أيضاً سيجعلها حرباً محدودة . فلكى تكون الحرب محدودة فإن ذلك يتوقف أيضاً على الطرف الآخر ".

وعلى كل وبرغم كراهيته للحرب فقد كان لايزال السبع المقيد المصفد ، ولايزال رمز الوحدة العربية والمقاومة . وهكذا اضطر عندما نشبت الأزمة سنة ١٩٦٧ إلى أن يقوم مرة أخرى برد فعل بالنيابة عن الشعب العربي .

إلا أن الأحداث التى تلت ذلك تركته سبعاً جريحاً وهى جراح لم يبرأ منها قط .

فقد تكهن بأن الإسرائيليين - سيبدأون الحرب بضرب مطارات مصر فكان يحذر السلاح الجوى باستمرار ليكون على أهبة الاستعداد ومتيقظاً لأى هجوم مفاجىء . ومع ذلك فعندما وقع الهجوم ، حدث ما كان يخشاه تماماً ، إذ فوجىء السلاح الجوى بالهجوم وهو على غير استعداد على الإطلاق . وأحس في القيادة العامة صباح اليوم الأول من الحرب بجو الذعر الذى كان سائداً ، ومنذ تلك اللحظة فقد الثقة. وحاول أن يعزز معنويات قادته مهيباً بهم أن يقاتلوا حتى تهب القوى العالمية والنظام الدولى كله- كما حدث في السويس لنجدتهم وتجبر الإسرائيليين على التوقف عن هجومهم .

لكن الأحداث كانت تتلاحق بسرعة فائقة، فقررت قيادة الجيش إخلاء سيناء واتخذ هذا القرار دون استشارته. ولما سمع بقرار الانسحاب من سيناء بكى لأول مرة في حياته وتوجه إلى مقر القيادة العامة وحاول أن يوقف الإنسحاب . وكان الأوان قد فات . إذ كان الجيش المصرى قد هزم .

ومع الهزيمة أتت المذلة . قرر أن يستقيل وكان مستعداً كل الاستعداد لمواجهة المحاكمة عن مسئوليته. كان مستعداً بل متشوقاً تقريباً لتسليم نفسه للشعب .

وقد قال في ذلك : " إذا وجدني الناس مذنباً وشنقونى في ميدان التحرير، فإني سوف أقبل حكمهم بكل رضا ".

لكن الناس تحركوا فى اتجاه مضاد كلياً . فعندما ألقى خطابه **[في ٩ يونيو ١٩٦٧]** متحملا المسئولية معلناً انسحابه من الحياة السياسية قائلا إنه مستعد لتقبل أى قرار قد يتخذه الشعب : توسل إليه الشعب أن يبقى .

دهشه ذلك وأذهله. كان مستعداً لأن يتحمل المسئولية كلها. ولكن بدلا من ذلك هب الشعب العربي كله مرة أخرى يؤيده ويرجوه أن يبقى . فقد شعر العرب بأنه لا يزال يمثل إرادتهم ، وأرادوه أن يقودهم لمحو آثار الهزيمة.

سلم بحكمهم . لكنه بدأ يبنى على الأنقاض .

واضطر إلى أن يتخذ قرارات خشنة. فقد اضطر إلى إقالة المشير عبد الحكيم عامر برغم أنه كان فى وقت من الأوقات أقرب أصدقائه، وإلى إقالة جميع قادة الجيش السابقين .

وهكذا بقى وحيداً كل الوحدة . وشعر في وحدته بأن هناك مؤامرة تحاك ضد كل الاتجاه الذى يمثله فى الثورة العربية سواء فى الجانب السياسى أو القومى أو الاجتماعي . وكان يشعر بالألم رغم تأييد الشعب ودعمه له. كانت جراح روحه عميقة .

وللمرة الأولى في حياته بدأ يحتاج إلى أقراص منومة بعد أن كان موهوباً بالقدرة على أن ينام نوماً عميقاً . بل انه حتى في أثناء حملة السويس استطاع أن يأوى إلى الفراش وينام حيثما احتاج إلى ذلك. وفي الليلة التى كان أسطول الغزو البريطاني يقترب من السواحل المصرية أوى إلى فراشه تاركاً أوامر تقضى بأن لا يوقظ إلا عندما تبدأ عمليات الإنزال الأولى .

غير أنه فقد هذه القدرة بعد ١٩٦٧. وأصابه الإعتلال وأخذ يتحدث عن الاستقالة. لكنه ظل يشعر بألم الهزيمة ومسئوليته وبعبئه المستمر كتعبير عن الروح العربية.

أصبح الآن مغلولا وجريحاً بجراح لا تبرأ. ثم انتقل إلى رحاب الله في ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ وبكاه شعبه وأمته والعالم كما لم يحدث لزعيم آخر ربما بطول التاريخ كله .

مات السبع لكن إنجازاته ظلت حية بعده . لقد ربط مصر ببقية العالم العربي وربط العرب بالعالم المعاصر وأفكاره بالرغم من أنه لم يحقق الوحدة العربية الشاملة التى كان يحلم بها ويعمل من أجلها فقد جسد وبلور الحاجة إليها. وربما ثبت استحالة تحقيق هذه الوحدة في حياته لكنه أصبح من المستحيل ، - بعد عهده- تجاهلها.

ولقد غير وجه العالم العربي وغير الألوان على الخريطة فلم تعد الألوان الحمراء البريطانية والخضراء الفرنسية تشير إلى حدود الأقطار العربية. ذلك أن المستعمرين رحلو إلى الأبد . كذلك فقد حطم النمط الإقطاعى للحياة العربية .

وفي مصر وطد الاستقرار الذى مكنه من إحداث التغيير وما كان في وسع أي حكومة مصرية- تستند إلى النظام الحزبي القديم والضعيف الواهى- أن توفر الاستقرار اللازم لكى تتصدى لتنفيذ المشاريع الكبرى مثل السد العالى وكهربة وادى النيل . فأمثال تلك الحكومات كانت أضعف وأكثر جبناً من أن تقوم بالمشاريع الكبرى التى تمس إليها الحاجة إلى تغيير وجه البلاد .

وقد وفر عبد الناصر الاستقرار فى الحكم الذى سمح بحدوث التغييرات الجوهرية الماثلة والمجسدة فى برنامجه المتعلق بالإصلاح الزراعى والتصنيع والمشاركة العمالية في الاقتصاد.

وبعد أشهر من وفاة جمال عبد الناصر أجمل لى (أندريه مالرو)- المفكر الفرنسى العظيم- رأيه فيه بقوله:

" بغض النظر عن كل شيء ... بغض النظر عن النجاح أو الفشل ، والنصر أو الهزيمة، فإن عبد الناصر سيدخل التاريخ كتجسيد لمصر كما دخل نابليون التاريخ تجسيداً لفرنسا ".